علي فخرو

عميد العروبيين في الخليج علي فخرو لـ (الزمان): (1)

الشعوب لا تنسى أخطاء الأحزاب وتدميرها عمل لا يغتفر

قابلت صدام حسين ثلاث مرات وهكذا وجدته

احمد عبد المجيد
بيروت

قبل نحو 70 عاماً تلمس طالب الطب في الجامعة الامريكية ببيروت علي فخرو، الطريق نحو الفكر القومي، وتسلل هاجس الوحدة العربية الى عقله، عبر علاقة تعمقت بمرور الايام مع مؤسس حزب البعث ميشيل عفلق. وبرغم التحديات والظروف الصعبة ظل مرتبطاً بالفكر العروبي، مدركاً ان الامة لا تنهض الا بوحدتها.

ولم يتخذ وسيلة الا وجرب وضع لبنة في اسس هذا الصرح.

ويوم استوزر الصحة في اول حكومة بحرينية بعد مغادرة البريطانيين المنطقة، اطلق مشروع مجلس التخصصات الطبية، مؤمناً بأنه خطوة وحدوية في قطاع يسهم في التنمية القومية وانقاذ الانسان. وحين مضى وزيراً للتربية تبنى ثورة محاربة الأمية الأبجدية، وامكنه ان يعد البحرين بالقضاء عليها عام 2000.

عن رحلته الطويلة في الحراك العروبي ولقاءاته بأبرز رموز حزب البعث والنشاط القومي ورؤاه ازاء القضايا الملتهبة، ماضياً وحاضراً، كان لـ (الزمان) هذا الحوار مع عميد العروبيين في الخليج العربي الطبيب والمفكر القومي علي فخرو الذي قدم نفسه لنا هكذا:

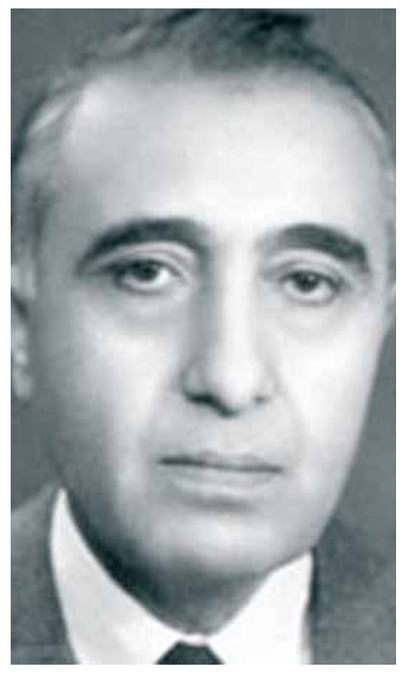
صلاح الدين البيطار

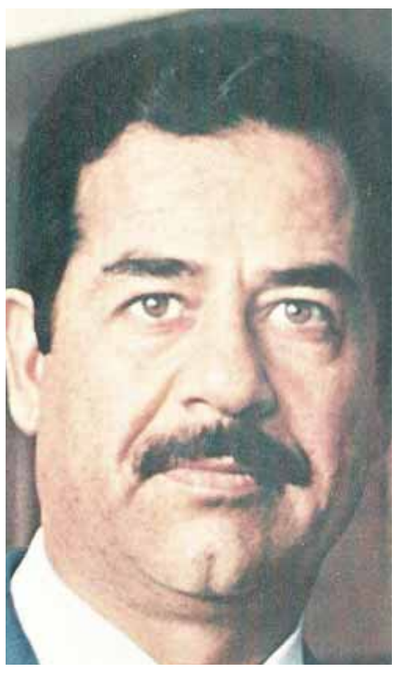
صدام حسين

ميشيل عفلق

– تخرجت من كلية الطب بالجامعة الامريكية ببيروت ثم ذهبت الى الولايات المتحدة الامريكية وتخصصت بالامراض الباطنية ثلاث سنوات ثم رجعت الى البحرين سنتين، ثم عدت مرة اخرى للولايات المتحدة للدراسة وتخصصت بامراض القلب، لكن بعد وصولي مباشرة الى بلدي خرج الانكليز من المنطقة، وتألفت اول حكومة في البحرين وطلب مني ان اكون وزيراً للصحة وبقيت امارس المسؤولية نحو ثلاث سنوات في الوزارة، اضافة الى ممارسة مهنتي في العيادة في المساء. ومع الوقت وكثرة السفر واللجان، كان علي ان اختار بين الطب او المنصب. وفكرت ان الطبيب يؤدي مهمة كبيرة على الفرد، في حين يمكن للوزير ان يفيد المجتمع. وهكذا اخترت ان ابقى وزيراً لافيد المجتمع اكثر. وسرعان ما امضيت 12سنة اخرى في المنصب.

□ ما شاء الله..

– ثم بعد ذلك عينت وزيرا للتربية وامضيت في المنصب 13 سنة.

□ ما هي الحقبة الزمنية التي امضيت فيها المسؤولية في الوزارتين؟

– الصحة بين الاعوام – 1970 1982 والتربية بين الاعوام 1995 – 1982 ثم ذهبت سفيرا للبحرين في باريس وبروكسل وسويسرا، وغطيت هذه المسؤولية الدبلوماسية لمدة خمس سنوات ثم عدت الى البحرين وعينت رئيسا لمجلس امناء مركز البحرين للبحوث والدراسات. ثم داهمني التعب الوظيفي فاضطررت الى التفرغ للعمل في الحياة القومية العامة، ودأبت على كتابة مقالة اسبوعية تنشر في خمس صحف بينها القدس العربي في لندن والشروق في مصر والخليج الاماراتية والبحرينية ولكن ظروفاً وتعقيدات اوقفتني عن النشر في هذه الاخيرة، وفي الراية القطرية والنهار الكويتية وعدة صحف اخرى تقوم بنشر المقال ذاته في وقت واحد.

□ ما ابرز الجوانب التي يتناولها المقال، ولاسيما وهو يحظى بمثل هذا الاهتمام؟

– هو يغطي جوانب عدة سياسية تقوم على اسس وتوجهات قومية. دائما اي موضوع محلي اربطه بجذره القومي العروبي. وفي الموضوعات ايضاً مجموعة لا بأس بها تتناول الجوانب الثقافية والتربوية.

□ وكم كتابا اصدرت؟

– لم اصدر اي كتاب، لكني انوي تبويب نحو 600 مقال من مقالاتي لاصدار سلسلة منها، في اربعة كتب وسأتفرغ لهذه المهمة هذا العام ان شاء الله. الاول في السياسة والثاني في الثقافة والثالث في الجوانب التربوية والرابع في الجوانب الصحية، اقصد السياسات الصحية. فأنا عندما كنت وزيرا للصحة كنت امثل بلادي في منظمة الصحة العالمية ولي كتابات وخطابات هنا ولي مواقف، وعندما انتقلت الى التربية مثلت البحرين في منظمة اليونسكو ودخلت في المجلس التنفيذي لليونسكو، لمدة اربع سنوات. وفي الحياة العامة العربية منذ ان تأسس مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت، وانا عضو في مجلس الامناء وفي المكتب التنفيذي للمركز، في اغلب الاحيان. وانا كذلك عضو في مجلس امناء مركز الدراسات الفلسطينية وفي مجلس امناء الجامعة العربية المفتوحة ورئيس لجنتها التنفيذية، والان اصبحت نائباً لرئيس مجلس الامناء. من قبل كان المرحوم الامير طلال بن عبد العزيز رئيسا وكنت نائبا له. اما في البحرين فثمة اشياء كثيرة انا فاعل فيها كجمعية الهلال الاحمر.

□ ما ابرز انجازاتك ابان كنت وزيرا للصحة؟

– في هذه المدة اقترحت على وزراء الصحة العرب، القيام بانشاء البورد العربي او مجلس التخصصات الطبية العربية. اقتداء بالمجلس التخصصي الامريكي.

وقد بدأنا بثلاثة تخصصات واليوم لدينا نحو 35تخصصاً.

وانا افخر ان هذه المؤسسة من المؤسسات القومية التي ظلت قائمة، برغم كل التفسخ الذي حدث في المنطقة بمعنى اخر، انا من الذين يؤمنون بقول الشاعر البولندي في الخمسينات من القرن الماضي، قرأتها عندما كنت في الجامعة يقول (ربي لا تدعني اموت في فراشي. ربي دعني اموت في ساحات الحرية). اي انت عليك ان تشتغل الى اخر يوم من حياتك.

□ ما تفسيرك؟

– يعني يجب ان نبقى نناضل من اجل القضايا التي آمنا بها. يعني انا عندما كنت في الجامعة الامريكية انخرطت في حزب البعث العربي الاشتراكي واصبحت عضوا، لا اكتمك اني خرجت من الحزب عندما وافق حزب البعث على انفصال سوريا عن مصر عام 1962.

قلت اني استطيع ان افهم ان حزبنا يمكن ان يغير قناعاته او مبادئه ازاء الاشتراكية مثلا، او الحرية والديمقراطية، انما وجوده كله ممثل في الوحدة. لكنه وافق على انفصال سوريا عن مصر، وهذا موثق تاريخيا، لكن تبين في ما بعد ان هناك من وافق وهناك من لم يوافق، لقد شعرت ان الحزب قد خرج عن الخط الذي سار عليه وغادرته.

□ نعود الى لبنان.. هل تعرفت على مؤسس الحزب ميشيل عفلق في بيروت؟

– نعم.. عندما انظممت الى الحزب كان الحزب صغيراً في بداياته. وانا لست لبنانياً وكان عليّ ان اكون حذراً جدا، انما كنت في الحلقة الاولى، التي حركت في بداياتها كل ارجاء النشاط الحزبي. كان ذلك في عقد الخمسينات.

□ لكن الحزب تأسس عام 1947

– الاستاذ ميشيل عفلق خرج في بداية الخمسينات من سوريا، بسبب انقلاب الشيشكلي، فقابلته وقابلت الاستاذ صلاح الدين البيطار، لكني قابلت عفلقاً اكثر وكنت ازوره باستمرار، وكان احيانا يملي عليّ اشياء واكتبها من اجله، فتكونت لي معه علاقة شخصية انذاك. وحتى يتبين لك مدى عمق هذه العلاقة، انني رأيت الاستاذ ميشيل عفلق قبل الحرب العراقية الايرانية في بغداد.اجتمعت به في بغداد.

□ هل كان اخر لقاء لك به؟

– كان اخر لقاء وبعد ذلك توفى.

□ كيف وجدته في اخر في العراق لقاء عن اول لقاء في لبنان ؟

– كان حزيناً محبطا.. وانا اثرت عنده نقطة مهمة. قلت له انا اريد ان اعرف من يحكم العراق وسوريا أليس هو حزب البعث ام اناس اخرون؟

واذا اناس اخرون لماذا انتم تسمحون بالقول ان الحكم هو لحزب البعث. كانت لدي ملاحظات عديدة، منها ان من العار على الحزب الذي قام من اجل الوحدة العربية ان يحكم العراق وسوريا في ان واحد ولا تقوم وحدة بينهما مباشرة، ورأيت ان ذلك لن يغتفر للحزب.

□ ماذا كان تعليق عفلق على رأيك؟

– كان تعليقه ان الظروف تحول دون ذلك وان العسكر تمكنوا من الاستيلاء على السلطة.

□ كان قصده سوريا؟

– والعراق ايضا. كان يشعر بذلك لكن بوجه مبطن. انه يظن ان الذي يمسك بزمام الامر، هو السلطات الامنية والعسكرية.

□ دكتور.. انت الان قومي الهوى.. وقاطعني على الفور وقال:

– انا عروبي قومي حتى النخاع، واعتقد ان خلاص الامة العربية هو في توجهها القومي العروبي الديمقراطي. انا اعتقد ان اكبر الاخطاء الفكرية التي ارتكبناها في البداية، مع انا كنا تلاميذ عصرنا في الخمسينات، وكانت الديمقراطية تعد ترفا برجوازيا، وان الشعوب تحتاج الى الثورية او ما يسمى الانقلابية.

□ ورغيف خبز..

– نعم، ولكن تبين في ما بعد ان الديمقراطية شيء اساسي وكان يجب الا تسقط من الاهتمام. ولذلك انت تلاحظ ان الذين كتبوا المشروع النهضوي القومي وجدوا ، في هذه المرة، الديمقراطية جزء لا يتجزأ من المشروع النهضوي. اي انهم وضعوا الوحدة والعدالة الاجتماعية بدل الاشتراكية والتجدد الحضاري والاستقلال القومي والوطني.

□ دكتور دعنا نكون واقعيين.. ماذا بقي من فكر البعث في عقلك؟

– لا.. الان انت لا تستطيع ان تنصر اخاك وانت لا ترتكب الكثير من الاخطاء التي اثرت في حياة الملايين ثم تقول اغفروا لي. الشعوب لا تنسى الاخطاء، وبهذه السهولة. الاحزاب في اوربا الشرقية التي ارتكبت اخطاء كونت نفسها من جديد بفكر جديد. وانا هنا اريد ان اكون حذرا جدا باطلاق مصطلح الفكر الجديد. لان اي فكر جديد بالنسبة للوحدة العربية لا يؤخذ فيه.. انه شيء وجودي. نعم هو تدرجي يمكن تنفيذه بطرق ورؤى عدة ومراحل. هذه كلها يمكن مناقشتها، اما الفكرة الاساسية فلا يمكن ذلك. واكرر الا مستقبل للامة العربية دون وحدتها والايام تثبت، يوما بعد اخر، صحة ذلك. وانا دائما ما اقول، ان الوحدة لو قامت بين سوريا والعراق لتجنبنا كل هذا الذي حدث. كانت ستقوم دولة غنية الى ابعد الحدود، قوية الى ابعد الحدود، ملايين البشر بنهرين وبترول وغاز وشعب متطور ومتعلم. كان العراق سيقضي على الامية تماما، في ذلك الوقت واقترب جدا كالبحرين. كنا نتسابق مع العراق في هذا الجانب. انا وقفت امام سمو الامير الراحل وقلت له (ستكون اول حاكم عربي في عام 2000 يحكم بلدا دون وجود امية). وانزلتها عندما كنت وزيراً للتربية منذ 1995 – 1982 الى 7 بالمئة فقط. وكنا نعتقد اننا سننزلها الى الصفر، خلال السنوات الخمس الباقية. ولكني تركت المنصب، ولا اظن ان الاخوة استطاعوا انزالها الى الصفر. اذن كنا نتكلم عن شعبين متقدمين، والسؤال كيف ابيع واضيع كل ذلك، في قصة من يكون رقم واحد ويكون رقم اثنين وثلاثة والكلام الفارغ هذا؟

□ هل قابلت الرئيس صدام حسين في حياتك؟

– قابلت الرئيس صدام ثلاث مرات. عادة كنت اقابله كوزير. فنحن في كثير من اجتماعاتنا، كوزراء للصحة والتربية قابلناه.

□ في بغداد؟

– في بغداد وفي القصر الجمهوري نقابله ونتناول الغداء معه. كان لا يتركنا الا ونتغدا معه. وانا اقولك انه كان ذكياً ولبقاً ومتحدثاً، على اطلاع واسع في التاريخ والافكار السياسية، وبالتالي كنا نخرج معه بتفكير وحدوي.

انا كنت اذهب في كثير من الاوقات اليه مع كثير من الزملاء بينهم الوزير رياض حسين ووزير صحة الكويت عبد لرحمن العوضي.

□ وقاطعته بالقول: بالمناسبة انا اجريت مع العوضي حواراً صحفياً في هذا الفندق بالذات (كولن بلازا)، لكن الدكتور علي فخرو فاجأني بكلمة:

– يرحمه الله..

□ وتأسفت لرحيله الذي تم قبل نحو شهرين. وواصلنا الحوار:

– وكان معنا ايضا وزير الصحة الجزائري والسعودي. وفي بداية الزخم الصحي وكان زير الصحة العراقي رياض حسين.

□ تم اعدامه...

– انا اقول لك. لقد وجدت رياضاً رجلاً شريفاً نظيفاً عفيفاً، بعثياً مئة بالمئة، ومؤمناً كاملاً بالسير قدماً في العراق. كيف حدث ما حدث؟

هذا اتركه للتاريخ ولغيري. انما حزنت كثيرا كثيرا لما آلت اليه نهايته. يعني شعرت ان انساناً يشرف هذا العالم باخلاقه وعلمه ان يختفي لكن السياسة لها ما لها!

□ دكتور وهل صادف انك قابلت الرئيس السوري حافظ الاسد؟

– لم يحدث لا في الشام ولا في غيره.

□ انت اذن بعثي النزعة عراقي الهوى.

– لا.. لا ابداً. انا تركت حزب البعث عام 1963 تزامنا مع الانفصال مباشرة، ومقابلتي للرئيس صدام لم تكن كبعثي وانما كوزير صحة، ثم وزير تربية، لكن طبعا كنا نكن له الاحترام.

□ هل ترى ان فكر البعث مازال مقبولا، في اعقاب كل هذه التداعيات العربية والتحولات الدولية ؟

– يعني انت خذ الشعارات الثلاثة للحزب. هل يستطيع احد ان ينكر اهميتها؟ الوحدة العربية تقولها دائما اولا التاريخ واللغة المشتركة والمصالح المشتركة والامتداد على الارض والمستقبل المشترك وتوجه العالم نحو تكتلات كبرى. كل هذه تؤكد ان شعار الوحدة العربية كان ضرورياً، والان هو ضروري وسيكون ضرورياً اكثر في المستقبل. بدون الوحدة العربية لا يمكن لهذه الامة ان تحقق ذاتها تحققاً كاملاً.. مثلما قلت نحن قد نختلف كيف ومتى وبأي طرق؟ هذه وسائل انما الهدف سيبقى. اي ان وضع الوحدة العربية، كشعار كان صحيحاً وسيبقى.

والان نأتي الى الحرية وهي مرتبطة مباشرة بالديمقراطية وبالفكر الليبرالي الديمقراطي ولا يستطيع احد ان يقول ان هذا شعار، واحلام طفولية كما كان يصفه البعض. الان الذي قد نختلف بشأنه هو الاشتراكية، وكل الذين يتحدثون عنه يقرنونه بالعدالة الاجتماعية. وانا اقول لك الان في هذه اللحظة، هناك كتب كثيرة في الغرب سواء في اوربا أو في امريكا، هناك مراجعة للرأسمالية والقول ان هذا النظام يجب ان يعدل مساره من خلال الاشتراكية. وهناك كتب الان تصدر وتتناول السؤال هل كان ماركس محقا ام لا؟ اذن هي افكار بالغة الاهمية واذا اردنا ان نستمر في نظامنا فلا يجب ان نستمر في الرأسمالية والليبرالية العولمية المتوحشة، التي تزيد الفقر فقراً وتزيد الغنى ثراء. الان هذا مطروح في الغرب وهناك كلام عن عودة الى اليسار واذا عاد فيجب ان يكون عبر المبادئ الاساسية للاشتراكية. وهذه الاخيرة هي عبارة عن فكر ونظرية تستطيع ان تطبيقها بأساليب جديدة في ما يتعلق بالملكية ودور الدولة. اذن نستطيع ان نقول نعم بامكان القطاع الخاص ان يؤدي نشاطه لكن ضمن استراتيجية مجتمعية وعدالة في توزيع الثروة ونظام ضرائبي عادل وانساني. اذن نحن ازاء ثلاثة شعارات لكن يجب ان يضاف اليها بقوة الديمقراطية، حتى لو استبدلت الحرية بالديمقراطية.

هذا الشيء يجب ان يتم وكل الشعارات الاخرى يمكن ان تندمج به كالاقليات. ورأى انه لا وجود لمشكلة اقليات بوجود ديمقراطية حقيقية فهي تحل المشكلة عبر مواطنة واحدة وعدالة للجميع وهناك حرية حركة وتعددية ثقافية. وامس كنا نتحدث عن عدم وجود مشكلة بوجود الثقافة الكردية داخل العراق كجزء من العراق.

وانا كتبت مرة عن هذا الموضوع وقلت لا يوجد شيء اسمه ان الشمال للكرد والجنوب، للشيعة والوسط للسنة، بل العراق هو لجميع ابنائه. الكردي له الحق في الشمال والوسط والجنوب مثلما ان الجنوبي له الحق في المنطقة الجنوبية وقلت ان اي انفصال لا تقرره الاغلبية، مثلما ان وضع الشمال لا يقرره الاكراد وحدهم. فالمنطقة الشمالية تابعة للشعب العراقي كله، اذا كانت غالبية الشعب العراقي تقبل بالانفصال فهذا شيء اخر لكن ليس من حق اقلية ان تقول اني ارغب بالانفصال انما نحن الذين نقول ذلك يجب ان نصر على ان التعددية السياسية وتداول السلطة يكون موجودا والاهم من ذلك كله ان المواطنة هي واحدة والاهم ان الثقافة العروبية هي الاهم.

□ هل يمكن ان نسمي هذا الطرح فكرا جديدا؟ ام هو نصيحة تقدمها الى قيادات حزب البعث؟

– نعم ان لدي اخوة واصدقاء سأقول لهم وسبق ان قلت لهم يتعين عليكم مراجعة فكر الحزب ليس بهدف اسقاط الاشياء الاساسية وانما إضافة واغناء الظروف التي استجدت. فمثلا اننا لم نكن نمنح المرأة العربية المكانة التي تستحقها.

كما اننا تكلمنا عن الاسلام كجزء لا يتجزأ من الثقافة العربية. والاستاذ ميشيل عفلق كتب بشأنها ما كتب. طيب انت الان ما هو موقفك من الفقه الاسلامي، الذي يعد من اهم المشاكل الثقافية في العقلية العربية. هناك عدم فهم مؤداه ان الفقه الاسلامي مقدساً بل هو عبارة عن اجتهادات في قراءة نصوص القرآن والاحاديث النبوية. فيه فكر من سبقونا. فيه فكر من عاشوا قبل 1350 سنة اولئك حاولوا ان يفهموه من خلال عاداتهم وحاجات مجتمعهم ولا يمكن اقبل ان ابا حنيفة او جعفر الصادق هما اللذين يقرران لي طبيعة حياتي في هذا العصر. وانا كتبت مقالة طالبت فيها بمدرسة فقهية جديدة تتولى استخلاص افضل ما في المدارس الفقهية القديمة وتضيف ما هو ضروري لهذا العصر. اي ان المراجعة الفقهية ضرورية لتحديث جزء من الثقافة العربية متضمنة الاسلام.

يتبع غداً

- تركت حزب البعث لتأييده إنفصال سوريا عن مصر عام 1962.
- ارتبط بعلاقة عميقة مع عفلق وفي آخر لقاء وجدته محبطاً.
- لا نهوض للامة العربية الا بوحدتها.. وانا عروبي قومي حتى النخاع
- فقدان وزير الصحة العراقي رياض حسين من اكبر الخسائر العربية.
- على البعث مراجعة افكاره والعدالة الإجتماعية تحل محل الإشتراكية.
- لو تمت الوحدة بين سوريا والعراق لتجنبنا وقوع الاخطاء القاتلة
- قلت لامير البحرين الراحل ستحكم بلداً بلا أمية عام 2000.
- فضّلت الوزارة على مهنة الطب لاخدم المجتمع البحريني.
- هناك عودة أوربية إلى الماركسية لمواجهة العولمة المتوحشة.
- لا يجوز للأقلية أن تقرر الانفصال وحق الكردي يشمل جميع مناطق العراق.
- الفقه الإسلامي بحاجة إلى تجديد يستجيب لمتطلبات عصرنا.

علي فخرو واحمد عبد المجيد في بيروت